اخلع نظارة اليأس

٢٧/ ٣/ ١٤٣٨هـ

أسباب الهموم والمكدّرات في هذه الحياة كثيرة، وفي المقابل؛ فإن أسبابَ السعادةِ والانشراح كثيرة ومتعددة، يعجز الإنسان عن عدّها.

ومن قرأ القرآنَ وجدَ أنه وصَفَ كثيرًا من المباحات بكلماتٍ تبعث على الفأل والسرور؛ فسمّى البنينَ والمالَ: ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

والقرآنُ صريحٌ جدًّا في التحذير من اليأس والقنوط، سواء في أمر التوبة بين العبد وبين ربّه، أو في علاقةِ العبدِ مع أقدار الله المؤلمة! فكيف ييأس مُذنبٌ وهو يسمع هذا النداء الذي يَسري إلى القلب من الرب الغني الكريم الرحيم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]؟!

وفي الصحيح: «**لو يعلم المؤمنُ ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحدٌ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد**»(١). وحين اشتدت الكربةُ بيعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يقنط، بل حذّر بنيه من ذلك،

(١) رواه مسلم (رقم٢٧٥٥).

فقال لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

وفي السيرة النبوية يجد الإنسانُ ما يُدهشه من عيشه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفألَ في كل أحواله، بل في أشـدّ الأزمات لا تُسـمعُ منه كلمةُ يأسٍ أو قنوط، **ومِن ألطف المواقـف** في هذا المعنى: أنه لما كانت النفوس مشـحونة في صلح الحديبية بسبب الشروط -التي كانت في ظاهرها غبنًا للمسلمين- وجاء سـهيل بن عمرو مندوبًا عن المشركين، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباشرة: «**سَـهُل لكم من أمركم**»[1] سـبحان الله! حتى في هذا المقام لم يدع الفأل باسم سهيل! ولسان الحال: وماذا يصنع اليأسُ إلا القعود وشماتة العدو والحاسـد؟! وماذا يفعل الفأل في النفوس إلا الانطلاق في فسحة الحياة الرحْبة، والعمل المثمر الجاد؟!

فأين اليائسون من واقع الأمة عن هذا الموقف، وموقفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الأحزاب، وغيرها من المواقف التي تهدّ الصمَّ الصِّلاب؟!

وفي الحثِّ على اختيار الأسـماء الحسـنة، وتغيير السـيئة مراعاةٌ لهذا المعنى بلا شك.

ومع هذا كلّه يأبى بعضُ الناس إلا أن يُردّد مفردات اليأس والقنوط! سـواء فيما يخصه، أو يخص واقع الأمة، وأننا حالةٌ استثنائيةٌ من موضوع الفأل، فهو يعيش اليأسَ في كل تصرفاته، ولا يكاد يفرح بشيء، ولا ينتظر شيئًا حسنًا، بل حتى الأشياء الحسنة تنقلب في عينه إلى سيئة! ولسان حاله

(١) رواه البخاري (رقم٢٧٣١).

يتمثل قول ذاك اليائس: لـــو اتّجرتُ ببيع الطواقي والكوفيات، لخلق اللهُ أناسًا بلا رؤوس!

المشـــكلة لا تتوقف عند هذا الحد، بل إن ســـيطرة هذه المشاعر تُقْعد الإنسانَ عن القيام بأمورٍ نافعةٍ كثيرةٍ؛ لأنه حكم على نفسه بالفشل، وذبح نفسَه بسكينِ اليأس.

تَرِدُ عـــليّ كما تَرِد على غيري رســـائلُ تنضح باليأس مـــن أمورٍ ثبت بالتجربة والواقع أن الفرج في مثلها حصل لأناس كثيرين، والمشـــكلات التي يعبّر عنها اليائســـون كثيرة، كمن تيأس من الزواج لظنها أن القطار فاتها، أو تيـــأس من الولد بعد زواجها، وثالـــث ييأس من حصوله على مصدر رزق مناســـب، ورابع ييأس أن يتخلص من عادة ســـيئة لازَمَها، وهكذا دواليك، وربّما أكّد لك بعضُهم صدق يأسه بأنه من عشر سنوات يدعو، والأمرُ كما هو!

قارِن بين هذه النفوس الغارقة في اليأس وبين قول مُوَرّق العجلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد دعوتُ الله بحاجة منذ أربعين سنة، فما قضاها لي، فما يئستُ منها»![1].

ومن شؤم التشاؤم: أن بعضَ هؤلاء إذا حدّثتَه بنصوصِ حسن الظن، وسيرة يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ ونبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال لك: هؤلاء أنبياء! يعني: لا مجال للمقارنة بيننا! وكأنه يقول: إنها مجرد قصص للتسلية فحسب! ونسي، أو تناسى أن الله تعالى ختم سورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف:١١١]، وأن الله قـــال لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠].

(١) الورع لابن أبي الدنيا (رقم٤٧).

وفي كتاب (الفرج بعد الشدة) قصصٌ كثيرةٌ مدهشةٌ، تبعث على الفأل وحسن الظن.

كثير من الأمراض النفسية التي قيّدتْ بعضَ الناس -عافانا الله وإياكم منها- هي نفسها أصابت آخرين، ولكنها لم تقيّدهم، ولم تُقعِدهم، بل انطلقوا في فسحة الحياة، ومشوا في مناكبِ الأرض، والفرقُ بين الفريقين: هو كيفية التعامل معها؛ فالأول استسلم، والآخر هزم اليأسَ بالتوكل على الله، وذبحه بحسن الظن، والفأل الجميل.

فيا كل من أوجعته سياطُ المصائب، هل ترى مَن حولك مِن السعداء؟ إنهم يعيشون ذات الوقت والزمان الذي تَعيشه، يُكابدون ما تُكابِد، ويُعانُون ما تُعاني -بل ربما أشدّ- فلستَ وحدك! لكن الفرق بينك وبينهم: أنهم نظروا إلى الحياة بعين التفاؤل؛ فرأوا الجمالَ شائعًا في كلِّ ذراته، وأحسنوا الظنّ بالله، وأيقنوا أن خِيرتَه تعالى لهم خيرٌ من خيرتهم لأنفسهم، وأن قدَرَه فيهم أحسن من تقديرهم لأنفسهم.

إنك تستطيع -إذا أردت التغيير- وتوكلتَ على الله، وفعلت ما بوُسْعِك من أسبابٍ أن تبدِّل الأسوأ بالأحسن؛ إذا لم ترضَ بالأسوأ، وعملت لتغييره بروح التفاؤل، ولسان حالك يقول:

وَإِنِّي لَأَرْجُو اللهَ حَتَّى كَأَنَّنِي
أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللهُ صَانِعُ

وتذكّر:

سيفتحُ اللهُ بابًا كنتَ تحسبُهُ
مِن شدةِ اليأسِ لم يُخلقْ بمفتاحِ